وطـنـي فـي قـلـبـي

جاكلين صفير

في حوار دار بين أخي وابنه رمزي (١٥ سنة) على خلفيّة خبرٍ متعلّق بالانتفاضة، والمحاولاتِ التي تسعى إلى «تهدئة الأوضاع»، قدّم رمزي التعليقَ التالي:

«الوطن ليس ما نعيش فيه بل ما يعيش فينا...»

فالوطن الذي يعيش فينا، في وجداننا، هو خلاصةُ الهويّة وما تَحْمله من توقّعات وطموحات. إنّه المحرّك الذي يجعلنا نتحمّس لكل فكرةٍ نرى فيها مشروعًا لتجسيد تلك الطموحات والتوقّعات.

لم أتخيّل في يوم من الأيام قسوةَ الغربة. أنا أعيشها في وطني، وأخاف منها على كلّ مَنْ يتوق إلى العودة إليه. فالغربة الجغرافيّة تَجْعل من الوطن حلمًا مجرّدًا بعيدًا عن تحدّيات الواقع، وعن فعله في تضييق الفجوة ما بين الحلم والحقيقة. وفي النضال من أجل التحرر يتجلّى الوطنُ الحلمُ ويصبح هدفًا يسخَّر من أجله كلُّ شيء: «الغالي فداكَ رخيص يا وطني...» وما أصعبَ خيبةَ الأمل حين يُستهان بالحلم ويُستبدل بواقعٍ لم يُبْقِ منه سوى الشّعار والشّعْر!

أتذكّر كيف أخذ يتشكّل وطني في قلبي وأنا طفلة. كنتُ أعشق كلَّ فرصة تتاح لي لكي ألتقيَ ترابَ وطني وأشتمَّ رائحةَ الصنوبر والزيتون. مازلت أتذكّر وجوه الناس الذين التقيتُهم في طفولتي وأحببتُهم قدرَ ما أحبّوني. إنّ حارتي تعشّش في قلبي، ومازلتُ أعيش في البيت الذي ولدتُ فيه. ولكنْ أين ذهبتْ حارتي؟

لقد عشتُ العقد الأول من حياتي في جوّ مفعم بوطن مسلوب. فأبي لاجئ أعاد بناء حياته مع أمي، التي عاشت في كنف أب وجدٍّ أصبحا جزءًا من أسطورة طفولتي. وفي حضن جدتي وأمي زرعتُ بذورَ محبتي لوطنٍ حلم فيه والدي وجدي.

بيتي شقةٌ في عمارة اشتركنا فيها مع عائلات أخرى، معظمُ أفرادها، مثل أبي، لاجئون من القدس. نراها من نوافذ العمارة ونشمّ رائحتها في أحاديث أبنائها المشرّدين. لكنّي لم أكن جزءًا من هذه المأساة، بل تحوّل كلُّ شوق أهلي وحسرتُهم على حلم قد يضيع إلى عيشٍ مشحونٍ بحدّة الطفولة التي لا تَعْرف إلا حبَّ الحياة والإصرارَ على إسعادِ مَنْ يحيطها. لم أكن أميِّز آنذاك أنني صمّمتُ على أن أستردّ وطنَ أبي وجدي المسلوبَ. كنتُ أخطّ معالم هذا الوطن في كل نبرةِ صوتٍ وآهٍ سمعتُها وأنا أَرْضع من حليب أمي.

◆ ◆ ◆

اليوم أعيش الغضبَ الذي يرافق رفضَ الاستسلام. فحارتي وحلم أبي مهدّدان لا من الخارج وحده، ولكنْ من الداخل أيضًا. لقد انصهر اغترابي بهجرة أبي، وأصبحتُ أحيا في عالم جدي الذي عاصر حُلُمَ التحرُّر. فمنذ بدأتُ حياتي مربّيةً وأنا أشعر بأنّ مهمتي الأولى تَكْمن في تفجير ينابيع الحياة والأمل التي تعيش في صدور الأمّهات والأطفال. وكانت فرصتي الأولى في الانتفاضة الأولى.

أَذْكر تجربةً عشتها في «بدّو.»[1] كنتُ أتابع مشروع إنشاء روضة أطفال في قرية «القبيبة،» وكان الأطفال يأتون من «بدّو» و«بيت عنان» و«القبيبة.» عملتُ منذ البدء على إشراك الأمّهات في التفكير بما ستكون عليه الروضة. وعملنا معًا على اكتشاف ما يريده الأطفال. تعلّمْنا كيف نصغي إليهم. تحاورنا حول أولويّاتنا في العمل. تعلّمنا كثيرًا من الأطفال، واكتشفنا من خلالهم ما هو دفين فينا. تذوقنا فرحةَ التعلم، وبدأنا نكتشف القوةَ الكامنةَ فينا. لم

١ ـ قرية في قضاء رام الله.

وطني في قلبي

نَخَفْ من طرح الأسئلة، حتى الصعب منها. وذات يوم وأنا في طريقي إلى القبيبة أوقفني رجلٌ مزارع في طريقه إلى حقله. كان منفعلاً وتبدو عليه ملامحُ غضب. شعرتُ بشيء من الخوف وأغلقتُ نافذةَ السيارة وتسارعتْ دقات قلبي. سألني: «إنتِ الدكتورة اللي بتعلّم البنات؟» فأجبته بنعم، فتابع معاتبًا: «ليش ما بتشتغلي كمان مع الآباء؟ صَرن نسواننا يِعرَفِن أكثر منّا عن الأطفال، وهذا ما بصير ... كمان إحنا بدنا نفهم...» ولكنّي لم أستطع متابعة عملي مع الرجال في القرية لأنّي اتُّهِمْتُ من قبل سلطات الاحتلال بأني أمارس «التعبئة الشعبية.»

ما الذي دَفَعَ هذا الرجلَ إلى مواجهتي؟ كيف شعر بأثر العمل؟ لماذا استُهْدفتْ هذه المبادرةُ من قبل الاحتلال؟ وهل ستنجح اليوم؟ وأهمّ سؤال هو: هل أستطيع أنا أن أقوم بمثلها اليوم؟

بالطبع أستطيع... فأنا أقوم بممارسة قناعتي التربويّة بشكل أوسع وأكثر فعّاليّة، نتيجةً لما راكمْتُه من خبرة عبر السنوات الماضية. لكنّ الاختلاف يَكْمن في أنني على يقينٍ اليومَ أنّ الأفق بعيد، وهو يَبْعد بتسارعٍ يخيفني ويُشْعرني بأنني قد لا أعيش اليومَ الذي سيتجلّى فيه حلمي. ولكنني أعرف أيضًا أنني لا أستطيع التوقف عن المحاولة؛ وحتى لو أردتُ ذلك فأنا على يقين أنّه لا بد أن يتحقق تحرُّرُ شعبي، لا من الاحتلال وحده بل من كل القيود التي تكبّله أيضًا، وبخاصةٍ تلك التي تَكْمن في داخله.

◆ ◆ ◆

حين يتباين الوطن الذي يعيش في القلب مع الوطن الذي نعيش فيه يتولّد الشعورُ بالاغتراب. هذا ما أَشْعر به اليوم، وهو ما يثير غضبي. فأنا امرأة في عالمٍ يسوده رجال مكبّلون. وتجربتي في «بدّو» تجعلني أؤكّد أنّ القضيّة ليست قضيّة مساواة، بل قضيّة تحرُّرٍ لكلٍّ من الرجل والمرأة. فالرجلُ في مجتمعنا يستمدّ سلطته ممن يقمعه سواء أكان من الأعرافِ والتقاليدِ التي عملتْ على تجريده من ممارسة إنسانيّته وأحاسيسه وأَخضعتْه لأحكامٍ لا يجد سبيلاً إلى تحدّيها، أم من خلال تنصيبه وصيّاً على حركة سياسية تكبّله ضمن قيودٍ لعبةٍ لا يسيطر عليها بل يناضل فقط من أجل حقّه في المشاركة فيها. فكيف يُمْكن امرأةً تذوّقتْ طعمَ التحرُّر أن تَخْضع لسلطةِ رجلٍ مكبّل؟

◆ ◆ ◆

ثم إنّي مستقلة في واقع تتقاسم فيه الأحزابُ الوصايةَ على الوطن؛ وهذا أمرُ الأمرّيْن! وأعيش اغترابي هذا كمهنيّة. فأنا مربّية تؤْمن بتحرير الإنسان وبتفجير طاقاته ليكون مَنْ يريد أن يكون. فالإنسان يُولَد وهو مجهَّزٌ بفطرة التعلم، وبمنظومة متكاملة من الإمكانات التي تتفتح بفضل تفاعل الفرد مع كلِّ ما يحيط به من بيئة مادية وبشرية.[1] وهنا أجد نفسي أمام التحدّي الأكبر، لأنّ النظرة السائدة في مجتمعنا تميل إلى التوجه السلوكيّ الذي يعطي المجتمعَ الحقَّ في التحكم في نتائج العملية التربويّة، وهو ما يَحْرم الفردَ حقَّه المبدئيَّ في المشاركة في صنع قراره الحياتيّ. ومن هنا أجد أنّ صراعي لا يَقْتصر على «السلطة» وحدها بل على الرؤيا أيضًا.

◆ ◆ ◆

أخيرًا أنا مسيحيّة تعيش اغترابًا مضاعفًا. فأنا أعيش اغترابًا بسبب هويتي المسيحيّة حين تتخذ المسيحيّةُ التشكيلَ الطائفيّ. وأنا كمسيحيّة أعيش اغترابًا بسبب وطن تسوده قوةٌ إسلاميّةٌ لا تَقْبل

١ ـ هذا ما اكتشفه علمُ الوراثة، وما يَدْعم نظريّاتِ علم النفس التطوُّريّ.

أنا مسيحيَّة عربيَّة ومـصطلح «القـوَّة الوطنيَّة والإسلاميَّة» يجـسِّـد عنوانَ إحساسي بالغربة

جاكلين صفير
عميدة كليَّة الآداب بجامعة بيت لحم في فلسطين.

أو لا تكتفي بكونها قوةً وطنيَّة. ولا شكَّ أنَّ هذا المستوى من الصراع يَضْربني في الصميم. فأنا مسيحيَّة عربيَّة في جوهري؛ وفي كل لحظة يزداد فيها التركيزُ على إسلاميَّة الهويَّة العربيَّة أجد في ذلك رفضًا لمن أكون. إنَّ مصطلح «القوَّة الوطنيَّة والإسلاميَّة» يجسِّد عنوانَ إحساسي بالغربة. فهذا المصطلح يحاول أن يكون جامعًا ولكنَّه في الواقع يستثني كلَّ مَنِ اختار أن يكون مستقلاً. وتصبح هذه القوَّةُ سلطةً تَقْتصر على نفسها في صنع القرار، وتَسْتبعد المواطنَ من الإسهام فيه. وبين «السلطة الوطنيَّة» و«القوة الوطنيَّة والإسلاميَّة» يجد المواطنُ نفسَه مجرَّدًا من حق اتِّخاذ القرار بل ومن مناقشته أيضًا؛ فهو يقف أمام «سلطة» تدّعي الوصاية الكاملة عليه وعلى مصيره.

◆ ◆ ◆

كيف نقيم التوازن بين الهويَّة الفرديَّة، والهويَّة الجماعيَّة القائمة على رؤية وطنيَّة تَقْبل التعدُّديَّة بمختلف أشكالها؟

كيف نعمل على النهوض بالواقع الثقافيِّ الذي يقوم على أساس احترام المبادئ والقيم المنبثقة من موروثنا الثقافيِّ وتطوير رؤية تربويَّة تمتاز بالأصالة والتجديد؟

كي لا يصبح الوطنُ حكرًا على مجموعة دون غيرها... وكي لا نتحوَّل أشخاصًا يَحْملون «بطاقةَ هويَّةٍ فلسطينيَّة» ولا يَجْمعهم سوى الارتباط التاريخيِّ والجغرافيِّ على أرض وطنٍ تحوَّل مكانَ إقامة... من أجل كل هذا، لا بدَّ من أن نَقْبل تحدِّي مواجهة الذات وتقويم واقعنا بموضوعية. هذا خيار، إنْ لم تلتزم به الجماعةُ فإنَّ في استطاعة الفرد أن يُلْزم نفسَه به. ذلك أنَّ التحرُّر قرار شخصيّ قبل أن يكون قرارًا سياسيًّا. وهذا هو ما اكتشفه رمزي حين قال: «الوطن ليس ما نعيش فيه بل ما يعيش فينا.»